

الخصائص الموضوعية والفنية في شعر النابغة الذبياني

د. محمد علي محمد جودر*

مقدمة

يُعد النابغة الذبياني من أشهر الشعراء المقدمين في الجاهلية، حيث تميز شعره عنهم بأنه أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً فكان شعره كلاماً ليس فيه تكلف.

ويذكر ابن سلام الجمحي إن النابغة من الشعراء المبرزين ويقرن اسمه إلى امرئ القيس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى، فهؤلاء في رأي ابن سلام المقدمين على سائر الشعراء في الجاهلية.

أما في الإسلام فقد روى عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) انه قال: من أشعر الناس؟ قال جلساؤه، أنت اعلم يا أمير المؤمنين قال من الذي يقول؟

فَمِ فِي الْبَرِيَّةِ فَأَحْدُدُهَا عَنِ الْفَنْدِ

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهِ لَهُ

قالوا: النابغة. قال من الذي يقول؟

عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِي الظُّنُونُ

فَجَبْتُكَ عَارِيَا خَلْقاً ثِيَابِي

قالوا: النابغة. من الذي يقول؟

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً

قالوا: النابغة. قال: (هو أشعر العرب)

وتتأكد مكانة النابغة إذا علمنا انه كانت تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فيحكم بينهم، ويروى أنه أتاه الأعشى فأنشده شعره، ثم حسان بن ثابت، ثم الخنساء بنت عمرو بن الشريد.

وقد عرف بمقدرته الفنية فهو لا يقبل كل ما يرد على خاطر، بل لا يزال يتقفه، ويصقل فيه حتى يستوي له اللفظ المؤنق أو الديباجة الجزلة.

* كلية التربية العجيلات

الخصائص الموضوعية والفنية في شعر النابغة الذبياني

لقد امتاز الشعر الجاهلي بالعديد من الخصائص التي ظهرت في شعر أغلب شعرائه، والنايغة من الشعراء المعروفين في الشعر الجاهلي لذا فإن شعره يمتاز بأغلب ما امتاز به الشعر الجاهلي، وتبقى لشاعريته من الخصوصية ما تفرده ببعض الخصائص، وفيما يلي نجل أبرز الخصائص التي امتاز بها شعر النابغة.

المطلب الأول: الواقعية

إن الشعر الجاهلي استمد مادته من الحياة فصور البيئة.. أصدق تصوير وهو تصوير واضح جلي لا خفاء فيه، بسيط لا غلو فيه، فيه بعد عن المبالغة والتعقيد (المسلوت، 1983)، ومن مظاهر الواقعية التقرير والسرد إذ نجد لدى الشاعر نزوعاً واقعياً وارتباطاً بأحداث الواقع في جزئياته (القرشي) فتظهر منازعاته مع الأشخاص والقبائل ويقيد نفسه بالمعارضة والنقاش والرد والبرهان، ونجد هذا يتمثل في شعر النابغة مع القبيلة في حروبها وخلافاتها مع القائل وخلافاته وهو مع الشعراء وغيرهم، ومنه قوله:

لقد قلتُ للنعمانِ يومَ لقيتهُ يُريدُ * بني حُنْ بِرُقَةٍ صَادِرِ
تَجَنَّبُ بني حُنَّ، فَإِنَّ لِقَاءَهُمْ كَرِيهٌ، وَإِنْ لَمْ تَلَقَ إِلَّا بِصَابِرِ
عِظَامُ اللَّهِـيِ * * * أَوْلَادُ عُدْرَةَ إِيْتَهُمُ لِهَامِيْمُ، يَسْتَلْهُمُونَهَا بِالْحَنَاجِرِ * * *
وَهُمْ مَنَعُوا وادي القُرَى * من عدوهم بَجَمْعِ مَبِيرٍ لِلْعَدُوِّ الْمُكَائِرِ

بهذا نجد القصيدة قد تحولت إلى برهنة فهو يقدم رأيه ويتبعه بأدلته وبراهينه. ومن ذلك أيضا قوله :

قالتُ بنو عامرٍ: خالوا * بني أسدٍ، يابوسَ للجَهْلِ، ضَرَّاراً لِأَقْوَامِ
يَأْبِي البلاءِ، فلا نَبْغِي بِهِمْ بَدَلاً، ولا تُرِيدُ خِلاءً بَعْدَ أَحْكَامِ
فصالحونا جَمِيعاً إِنْ بَدَا لَكُمْ، ولا تَقُولُوا لَنَا أَمْثالها، عامِ
إني لأخشى عليكم أن يكونَ لكم، منْ أَجْلِ بَغْضائِهِمْ، يَوْمَ كَأَيامِ

* يريد أنه إن لم تلقهم إلا برجل صابر على شدة القتال، فإن لقاءهم شديد مكروه لقتلهم وشدة حريمهم.

* اللهبي: جمع لهوة، وهي الحفنة من الطعام تجعل من فم الرحا، وهنا بمعنى حفنة المال. يستهلونها: أي يبتلعونها.

* الحناجر: الحلو.

* وادي القرى: هو الوادي الذي غلبوا عليه، المبير: هو المهلك، المكائر: الذي يغالب بالكثرة. وللبيت راوية أخرى بلفظ:

(هم منعو وادي القرى)

* خالوا: أخلوا. البلاء: التجربة. الخلاء: المتاركة. عام: ترخيم عامر بن صعصعة.

ففي هذه الأبيات وسواها يغلب الحوار الواقعي حول أحداث وقعت أو تقع بين النعمان الغساني والشاعر، وهي أدنى إلى الحديث النثري منه إلى الشعر ولا تعدو الأبيات الأربعة هذه الظاهرة الواقعية، فهو يعرض مقالة بني عامر ويرد عليها ويسفهاها، ويقترح حلاً آخر ثم يتهددهم من دون أن يكون ثمة رؤيا خاصة، أو صورة أو أي هم جمالي أو بلاغي، هنا يركد الانفعال الخلاق وتخبو شعلة الجمال وتتهدن ذات الشاعر وتخضع خضوعاً كلياً للعالم الخارجي. يبقى عنصر المكان عنصراً واقعياً في القصيدة الجاهلية، إذ يتمسك الشاعر بالمكان وبذكرياته فيه والأحداث السوالف، وإن النابغة أحد الشعراء الذين أداموا الوقوف على الأطلال ووصف الديار وتعداد أسمائها ومنها قوله:

عفا ذو حُسا* مِنْ فَرْتَنِي، فالفوارِعِ، فجنَّباً إريكِ فالتَّلَاعِ الدوافِعِ
فمُجْتَمِعُ الأَشْرَاجِ* غَيْرَ رَسْمِهَا مصايِفُ مَرَّتْ بَعْدَنَا، ومرابِعُ
توهمت آيات* لها فعرفتُها لستة أعوامِ وذا العامِ سابعِ

إذا فالواقعية سمة عامة في الشعر الجاهلي، ولا ينفرد بها النابغة الذبياني وحده وإن رأينا مقار تمسكه بالواقع.

المطلب الثاني: المحافظة أو التقليد

يلاحظ في الشعر الجاهلي اشتراك الشعراء في المعاني، وخاصة في تصويرهم للعالم الحسي الذي يشاهدونه أمامهم (لذلك نجد ما يقوله الشاعر منهم في وصف الفرس أو الناقة نجده عند عشرات منهم):

رماذُ ككْحَلِ العَيْنِ لأياً* أبيضُهُ، ونؤيِّ كجْدَامِ الحَوْضِ أنلُمُ خاشعُ
كانَ مَجَرَّ الرّامِساتِ* ذُبُولِها، عليه، حَصِيرٌ، نَمَقْتُهُ الصّوانِعُ

نلاحظ تعداد الأسماء ووصفها بدقة، وتناول المكان والزمان بالتوضيح، حتى لتشعر أن الشاعر يلقي بين يديك تاريخه مع هذه الأماكن وتكون الواقعية في (الصدق في التعبير وفي نقل الصور والمشاهد نقلاً يكاد يكون أميناً، وبخاصة حين يذكرون المواضع ويناجون الديار.. فلا يببالغون في

* ذو حسي: موضع يقع في ديار بني مرة، الفوارع: المواضع المرتفعة كالجبال ونحوها، التلاع: مجرى المياه إلى الأودية، وهي جمع تلعة، الدوافع: التي تدفع إلى الوادي، وهي جمع دافعة.

* الأشراج: جمع شرج وهو شعب يدفع إلى الحرة وقيل هو مسيل في الأرض صلبة تدفع إلى الأودية، المصاييف جمع مصيف، وهو زمن الصيف، المرباع: أوقات الربيع.

* آيات: علامات الدار التي تعرف بها.

* لأياً: أي جهداً ومشقة، الجدم: الأصل، خاشع: أي لاصق بالأرض.

* الرامسات: جمع رامسة، وهي ريح شديدة الهبوب ترمس الأثر وتعقبه وتدفعه، نمقته: أي زينته.

الخيال ولا يسرفون في التصوير، وذلك لأنهم يتحدثون عن أحوال رؤواها وتجارب مارسوها ذكريات أحسوا بها) (شوقي، 1997).

فمعاني الشعر الجاهلي تتسم بالحقيقة وتصوير الواقع وعدم الجنوح إلى المبالغة (فهي معان لا تعرف التكلف، والشاعر يعبر عنها في صدق حتى أننا نجد إذا وصف معركة خاضتها قبيلة لا يتونى عن ذكر لهزيمتهم وفرارهم، بل قد يذهب أبعد من ذلك فيصف لنا فراره وهو، ولا يبخل في وصف عدوه وإظهار شجاعته وبسالته في الحرب) (البهيمي).

| | |
|--------------------------------------|--|
| كأن رَحلي، وقد زال النهارُ بنا | يَوْمَ الجليلِ* على مُستأنسٍ وحدِ |
| من وَحشٍ وَجْرَة*، مَوْشي أكارُ عُهُ | طاوي المصيرِ، كسيفِ الصَّيقلِ الفَرْدِ |
| أُسرتُ عليه، من الجوزاءِ ساريةً | تُرْجي الشَّمالُ عليه جامِدَ البردِ |
| فارتاعَ من صوتِ كلابٍ، فباتَ له | طوعَ الشَّوامتِ من خوفٍ ومن صرَدِ |

عند النظر في هذه الأبيات نجد الصفات التي ذكرت عند الشعراء الجاهليين عامة والمطر، وأخيراً بدأ المطاردة، بهذا نجد النابغة قد سار وفق نهج الشعراء الجاهليين من دون أن يخرج على هذا التقليد المتبع لديهم.

إن مقدمة القصيدة بصورة عامة تكاد أن تكون شبه موحدة لدى (الأبياري، 1957) الشاعر الجاهلي، فلو أخذنا صورة حمار الوحش لرأيناها تبدأ بوصفه وهو منعم بالربيع هو وأتاته، أو أتانيه ولا يلبث أن يبدأ الصيف ويأتي الجفاف يبدأ رحلته وهو شبيهه بشيخ القبيلة، يسوس الأمر بأن يسوق أتانه نحو الماء للنجاة بنفسه ومن معه (الثعالبي، 1967)، هذه هي صورة حمار الوحش في الشعر الجاهلي عامة، ولننظر في قول النابغة:

| | |
|--------------------------------------|-----------------------------------|
| كأن فُتودي والنسوع عذابها | مِصلٌ يباري العونَ جأبٌ مُعقربُ |
| رعى الروضَ حتى نَشَبَ الغدر والتوت | بدخلانيتها* قيعانُ شرحٍ فأيهبُ |
| فراحَ يريدُ العينَ عَيْنَ مُتَالِعٍ* | يَشُلُ بناتِ الأُخْديِّ وتَقْطُبُ |
| إذا هَبَطَا سهلاً أثارا غيابةً* | كأنَّ به منها مِشلاً يُنصَّبُ |

* الجليل: وإد قرب مكة، المستأنس: هو الذي ينظر لأنه أحسن إنسياً، وحد: أي مفرد.

* وجرة: مكان بين مكة والبصرة فيها وحوش كثيرة، موشي الامراع: هو الأبيض في قوائمه نقط سود، الطاوي: الضامر، المصير: هو المفرد من المصران كناية من البطن، الصقيل: هو الذي يجلو السيوف، الفرد: هو الذي لا مثل له، الجوزاء: برج في السماء، الشوامت: القوائم، الصرد: شدة البرد.

* الدحلان: جمع دحل وهو الشق في الأرض، القيعان: جمع قاع وهي الأرض المنسوبة ذات التراب، أيهب: اسم لموضع.

* متالع: اسم لجبل، بنات الأُخْدي: خيل منسوبة إلى فحل قيل إنه كان للنبي سليمان عليه السلام.

وإن علواً حزنًا* نحاها بغيبه
يكادُ رُضاهُن المَرُو منها يُلهَبُ

نرى أن النابغة لم يخرج على نهج الشعراء الجاهليين في هذه الصورة أيضاً، بل سار منتبعا
خطا الشعراء متمسكا ومحافظا على النهج العام للشعر الجاهلي.

المطلب الثالث: الإحساس بجمال الطبيعة أو المثالية

عرف الشاعر الجاهلي بإحساسه المرفه وتحسسه للجمال (وتبرز هذه الخاصة في معانيهم
التي تتناول المرأة وربطها بما في الطبيعة من جمال، حتى يتخيل إليك أن جمال المرأة وجمال
الطبيعة شيان ممتزجان) (بوملحم، 1991) وكان النابغة يداخل بين صورة المرأة وعناصر الجمال
في الطبيعة، فعندما وصف المتجرده رأى جمال الكون كله في هذه المرأة إذ قال:

| | |
|--|--|
| تَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ* شَادِنٍ مُتْرَبٍ | أحوى، أحمّ المُقْلَتَيْنِ مُقْلِدِ |
| وَالنَّظْمُ* فِي سِلْكٍ يَزِينُ نَحْرَهَا، | ذَهَبٌ تَوَقَّدُ، كَالشَّهَابِ الْمُوقَدِ |
| صفراءُ كَالسَّيرَاءِ، أَكْمَلَ خَلْقَهَا | كَالْغُصْنِ، فِي غُلُوَائِهِ، الْمُتَأَوِّدِ |
| وَالبَطْنُ نُو عُنِّ*، لَطِيفٌ طَيِّءٌ، | وَالْأَتْبُ تَنْفُجُهُ بِنَدِي مُقْعَدِ |
| مَحْطُوطَةٌ الْمُتَنِينِ*، غَيْرُ مُفَاضَةٍ، | رِيًّا الرَّوَادِفِ، بَصْنَةُ الْمُتَجَرِّدِ |
| قَامَتْ تَرَاءَى بَيْنَ سَجْفِي* كِلَّةِ | كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعُدِ |
| أَوْ دُرَّةِ صَدْفِيَّةٍ غَوَاصُهَا | بِهَجِّ، مَتَى يَرَهَا يُهَلِّ وَيَسْجُدِ* |

من خلال قراءة هذه الأبيات ندوك مدى الأريحية والشعور بمصادر الجمال التي امتاز بها
النابغة، فنظرة المرأة تذكره بغزال واسع العينين سوادهما، والعقد الذي يزيته نحرها يذكره بالشهب
المتوقدة في السماء، وهي بتأودها ورشاققتها واكتمال خلقها كأنها الغصن النضير، أما إطلالتها
فكأنها الشمس إذ تشرق من دون أن يكدر صفوها سحب أو ضباب، بل هي قد تكون أبهى

* غيابة: أي غباراً، المثل: هو الثوب الذي يغطي به العنق.

* الحزن: كل ما غلظ من الأرض، الغيبة: الدفعة من المطر ومن العدو.

* المقلة: كرة العين، الشادن: ولد الظبي، المتريب: المحبوس في البيت، الاحوى: الضباء، أحم أي شديد سواد المقلة، المقلد: هو الذي قلد
الحلي وزين به.

* النظم: كل ما نظم من الحلي في السلك، السيرة: ثوب من الحرير صفراء اللون، الغلواء، ارتفاع الغصن ونماؤه.

* العكن: جمع عكنة، وهو ما انطوى وتثنى من لحم البطن، الاتب: ثوب، تنفجه: أي ترفعه، مقعد: أي قائم ومنتصب.

* مخطوطة المتنين: أي التي في متبها خطان، المقاضة: الواسعة البطن، الريا: الممتلئة، البضة: الناعمة البيضاء، المتجرد: الجسم المجرد.

* السجف: الستر المشقوق في منتصفه، الاسعد: هو برج الحمل.

* يهل ويسجد: أي يرفع صوته بالحمد لله والثناء عليه.

وأصفي فهي كالدرّة، (وكل هذا هو إحساس بجمال الطبيعة وهو الذي لا يجعل الشاعر يعجز في شعره، فهو دائماً يستمد من الطبيعة تشبيهاته وصوره التي يؤدي بها ما يريد).

ونجد الجمال والمثالية في شعر النابغة في تضاعيف حكمه التي تناثرت في قصائده، ونجد فيها نظرة واقعية في الحياة هي نتاج تجارب عاشها الشاعر واستخلص منها العبر، وها هو يتحدث عن ضعف الإنسان أمام المقدر مهما امتلك أو قويت شوكته إذ قال:

مَنْ يَطْلُبُ الدَّهْرُ تُدْرِكُهُ مَخَالِبُهُ، والدَّهْرُ بِالْوَتْرِ نَاجٍ، غَيْرُ مَطْلُوبٍ
ما من أناسٍ ذوي مجدٍ ومكْرمةٍ إلاَّ يُشَدُّ عليهم شِدَّةُ الدَّيْبِ
حتى يُبَيِّدَ على عمدٍ، سِرَاتَهُمْ بالنَّافذاتِ مِنَ النَّبْلِ المصاييبِ
إني وجدتُ سِهَامَ الموتِ مُعْرَضَةً بكلِّ حتْفٍ، مِنَ الأَجَالِ، مكتوبِ

ونجد النابغة في حكمة داعية للسلم والإخاء والتسامح صبورا حليماً، والقناعة والكف عن الطمع فإننا أمام الجمال الخلاق والطباع جمال الروح، ومن قصائده التي دعا فيها لهذا حائثته التي يقول فيها:

ودع أمانةً إن أردتُ روحاً وطويتُ كشحاً دونهاً وجناحاً
بوداع لا ملقٍ ولا متكارهٍ لا بل يُعْلُ تحيةً وصفاحاً
واهجرهم هَجَرَ الصديقِ صديقهُ حتى تلاقيهم عليك شحاحاً
لا خَيْرَ في عَزْمِ بَغَيْرِ رَوِيَّةٍ والشكَّ وهنُّ إن نَوَيْتَ سَرَاحاً
واستبقِ ودكَّ للصديقِ، ولا تكن قَنَبًا* يَعَضُّ بغاربِ مِلْحَاحاً
ضَغِيناً يُدْخَلُ تحتهُ أحلاسُهُ شدَّ البطانُ فما يريدُ بَرَاحاً
فالرفقُ يُمنُّ والأناةُ سعادةٌ فتأنَّ في رَفْقٍ تَنالُ نِجَاحاً
والياسُ مما فات يعقب راحة ولربِّ مَطْعَمَةٍ* تَعوُدُ دُبَاحاً

تبدو هذه المثالية التي عرفها شوقي ضيف بأنها (التسامي في تصور الأمور وتصويرها والتعلق بالجميل من كل شيء) (الجبوري، 1993) تبدو ظاهرة في شعر النابغة الذبياني ماثلة في حكمه التي ذكرنا.

* القتب: الرجل، الغارب: سنام البعير، الملحاح: هو الذي يكثر الإلحاح.

* المطعمة: كل ما يؤكل، الدباح: هو الوجد في الحلق.

المطلب الرابع: التصوير

التصوير (أهم ركن في الشعر، ونراه عند الجاهليين في تصويرهم للطبيعة وعناصرها وتمثل الحياة فيها) (شاعر، 1983)، وهو يرتبط بالحسية دائماً وهذا عائد إلى الطبيعة البسيطة لحياة العرب قبل الإسلام (البطل، 1983). ولقد كان النابغة الذبياني أحد الشعراء المعروفين بمقدرته على تصوير مختلف المشاهد والأحاسيس وعلى استثمار هذه المقدرة في مختلف أغراضه الشعرية (عثمان، د.ط)، وقد عرف تصويره لليل في مقدمة قصيدته البائية إذ قال:

كَلَيْبِي * لِهَمِّ يَا أَمِيمَةَ، ناصِبٍ، وَلَيْلٍ أَقاسِيهِ بَطِيَّ الكَوَاكِبِ
تَطَاوَلْ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بُمُنْقَضٍ، وَلَيْسَ الَّذِي يَرعى النُّجُومَ بَأَيْبٍ*
وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عازِبٍ * هَمِّهِ، تَضَاعَفَ فِيهِ الحَزُنُّ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

لقد هجر النابغة حبيبته لتقل الهم عليه وأعان هذا الهم ليلٍ طويلٍ بطي الكواكب فهي لا تجري حتى اعتقد أن هذا الليل ليس له آخر، ولن يعود من يرقب النجوم فالنجوم باقية ثابتة، والليل زمن الهموم ومرحها، فقد عادت الهموم بعد غياب ونزلت على صدر النابغة الذي أصبحت أحزانه أضعافاً. وهذه الصور هي (براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يحسم معانية وكيف يعبر تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور) (عبد الرحمن).

لقد كان النابغة مدققاً في وصفه، ساعياً لإكمال الصورة بكل جوانبها، متأنياً فيها، حتى يعطي للصورة حقها من حركة ولون وسعة وتفصيل، ويستعين في تصويره بأساليب البيان من تشبيه، وله المكان الأسمى في الشعر الجاهلي، من ثم الاستعارة والكناية والمجاز، ويشيع التصوير في شعر النابغة في المقدمات الطللية والغزلية والرحلة، وما يتشقق منها من وصف ثور أو حمار وحش، وقد يخلق صورة ثانوية واسعة، تكون ظلاً للصورة الأولى، وسبباً لرفدها ومدتها بالتصوير الدقيق المعبر، ومن هذا قوله متغزلاً:

صَفَحْتُ * بِنَظَرَةٍ فَرَأَيْتُ مِنْهَا، تُحِيَةَ الحَدْرِ، وَاضِعَةَ القِرَامِ
تَرَائِبَ يَسْتَضِيءُ الحَلِيَّ فِيهَا، كَجَمْرِ النَّارِ بُدَّرَ بِالظَّلَامِ
كَأَنَّ الشَّدْرَ واليَاقوتَ مِنْهَا، عَلَى جَيْدَاءَ فَاتِرَةِ البُغَامِ
حَلَّتْ بِغَزَالِهَا، وَدَنَا عَلَيْهَا أَرَاكُ الجُرْعِ أسْفَلَ مِنْ سَنَامِ
تَسْفُ بِرِيرَةٌ، وَتَرَوُدُ فِيهِ إِلَى دُبُرِ النَّهَارِ مِنَ البَشَامِ

* كَلَيْبِي: أي دعيني وهمي، ناصب: أي به نصب وهم، بطيء الكواكب: أي أنه ليله لا ينفضي وكواكبه لا ثغور.

* يريد به أن كل إبل وغيرها يؤوب مع الليل إلى أهله، أما الذي يرقى النجوم فهو قاعد ينتظر الصباح.

* العازب: هو الذي يبني بيت في المرعى بعيداً عن أهله.

كَأَنَّ مُشَعَّشَعًا مِنْ خَمْرِ بَصْرَى، نَمَتْهُ الْبُخْتُ*، مَشْدُودَ الْخَتَامِ
نَمِينَ قِلَالَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ إِلَى لُقْمَانَ، فِي سُوقِ مَقَامِ
إِذَا فُضَّتْ خَوَاتِمُهُ عِلَاهُ يَبِيْسُ الْقَمْحَانِ، مِنَ الْمُدَامِ
عَلَى أَنْيَابِهَا بَغْرِضِ مُزْنٍ تَقْبَلُهُ الْجَبَاهُ* مِنَ الْعَمَامِ

يبدأ النابغة تصويره لحبيته، وأول ما يبينه التحصن فيه، لم تبرز إليه بل رآها وهي في خدرها، لكن جمالها يبين من تحت الأستار، فبدت ترائبها كأنها الحمر في الليل المظلم وهي تزين الحلي، ثم يشبه عنقها بعنق الغزالة الأليف المتودد ويصور مكان الغزال وهو مشجر مورد جميل، وهي منعمة تأكل طوال النهار وامتدادا في التشبيه ليعطيه البعد الأكمل. ثم يبدأ تشبيهها آخر فيأتي بالمشبه فإذا هي الخمر المشعشة المتألثة من خمر بصرى المشهور عندهم بالجودة وقد نقلته إليهم النوق الكبيرة السنام من الشام إلى الخمار لقمان، وهذا الخمر قد عني به وحفظ جيدا وحلي بالزعفران، هذه الخمر كأنها ريق حبيته لكن بعد أن يمزج بماء الغمام النازل على الصخر الصلد فتداعبه الريح حتى يبرد، كل هذه الصورة بنمائها وامتدادها والتدقيق فيها وصف لريق حبيبه الشاعر وجزء من تشبيهه وقد عرف النابغة (بمقدرته الفذة في العناية بجزئيات الصورة متى يثري صورته الكلية) (الطيب).

المطلب الخامس: حسن النظم

لقد امتاز النابغة الذبياني عن غيره من شعراء الجاهلية بحسن ديباجته وجمال ألفاظه (فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره، بل لا يزال يتقفه ويصقل فيه حتى يستوي له اللفظ المونق والديباجة الجزلة)، هذا لأن النابغة أتيح له أن يعيش في الحيرة وبصرى حيث المناذرة والغساسنة وحيث الحضارة واللفظ الجميل والحياة الرعدة، وقد كان لهذا تأثير كبير في شعر النابغة، فلننظر هذا المدح للغساسنة إذ قال:

رِقَاقُ النَّعَالِ* طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ، يُحْيُونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِ
تُحْيِيهِمْ بِيضُ الْوَلَائِدِ* بَيْنَهُمْ، وَأَكْسِيَّةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ
يَصُونُونَ أَجْسَادًا، قَدِيمًا نَعِيمُهَا، بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ، حُضْرِ الْمَنَاكِبِ (حاوي)

* البخت: الأبل، نمين أي نقلته الأبل من مكان لآخر بيت رأس: موضع بالشام، لقمان: رجل صاحب خمارة. القحمان: الزعفران: المدام: الخمر. غريض مزن: ماء السحاب البارد.

* الجبابة جمع جابي وهو الذي يجمع ماء المطر في الحوض.

* رقاق النعال: أي لا يمشون على قدميهم بل يمشون مطية. الحجرة: موضع التكلة من السروال. السباسب: يوم أحد الشعانين عيد عند المسيح.

* الولائد: الإماء الحسان. أكسية الإضريح: أثواب الخز الملونة. المشاجب. أعواد تعلق عليها الثياب. الأردن: الأكمام.

يصور النابغة الغساسنة، فيظهرهم في صور من النعيم والحياة الرغدة، فهم أطيب مكان وأنظفه، فيلبسون نعلاً رقيقاً وهم متعطرون، ولهم أعيادهم التي يرفلون فيها بأبهى لباس، وتخرج جواربهم الحسان لتحييهم بالرياحين والورد، وأرديتهم ملونة زاهية ذات أردان. (إن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة، وقد نفذ بذلك إلى معان حضرية جديدة.. وهو يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخاطرهم) (طماس، 2005).

لم يكن حسن النظم وجمال الصياغة يقتصر على المديح في شعر النابغة، بل نراه يمتد إلى بقية الأغراض ومنه الغزل، غزله بالمتجردة زوج النعمان بن المنذر إذ قال:

| | |
|---|---|
| قامت تراءى بين سَجْفِي* كِلَّةِ | كالشمس يومَ طُلوعِها بالأسعدِ |
| أو دُرَّةِ صَدْفِيَّةِ غَوَاصُها | بَهَجٍ، متى يَرها يُهَلّ ويسجُدِ |
| أو دُمِيَّةِ مِنْ مَزْمِرٍ، مرفوعةِ، | بُنِيَّتِ بَاجِرٍ، يُشادُ، وقِرْمَدِ |
| سَقَطَ النَّصِيفُ، ولم تُرَدِ إسقاطُهُ | فَتَنَّاوَلتُهُ، واتقننا باليدِ |
| بمُخَصَّبِ رَحْصِ، كأنَّ بنائُهُ | عَنَمٌ، يكادُ من اللُّطَافَةِ يُعَفِّدُ |
| نظرتُ إليك بحاجةٍ لم تُفْضِها، | نظَرَ السَّقِيمِ إلى وُجُوهِ العَوْدِ |
| تَجَلُّو* بقادِمَتِي حمامةِ أَيْكَةٍ، | بَرَدًا أَسِفٌ لثائهُ* بالاثمِدِ |
| كالأفحوانِ، غداةِ غِبِّ سَمائِهِ، | جَفَّتْ أعالِيهِ، وأسفلُهُ نُدي |
| رَعَمَ الهَمَامُ بأنَّ فاها باردٍ، | عَدَبٌ، مُقَبِّلُهُ، شَهِيُّ الموردِ |
| رَعَمَ الهَمَامُ، ولم أدْفُهُ، أَنَّهُ، | عَدَبٌ إذا مادَّقَتُهُ قلتُ: أزدِدِ |
| زعم الهَمَامُ ، ولم أدْفُهُ ، أَنَّهُ | يُشْفِي ، بَرِيًّا * ريقِها ، العَطِشُ الصَّدي* |
| أخذ العذارى* عِقْدَها، فنَظَمَنَّهُ، | من لُؤلؤٍ مُتتابعٍ مُتسرِّدِ |

نرى في هذه اللوحة أثر التحضير في شعر النابغة وقدرته على الصياغة المعبرة الجملة المشبعة بحسن اللفظ والحركة واللون والمعنى الجميل، وهذا من أثر الحضاري التي (تروع النابغة

* السجف: الستر المشقوق في منتصفه، الدمية، الصورة أو التمثال، المرمر: نوع من الرخام أبيض اللون.

النصيف: كل ما يغطي الرأس، البنان، الأصابع المخضوبة، الغنم، نوع من الدود حمراء اللون.

* تجلو: أي تكشف، القوادم: هو الريش المقدم في جناح الطير شديد السواد.

* اللثاثة: مفرز الاسنان.

* الريا: الريح الطيبة.

* الصدى: العطش.

* العذارى: الجواري الابكار، المتسرود: هو الذي يتبع بعضه بعضاً.

أمام معالمها ألمم الدمى والتماثيل والمرمر والآجر والقرميد، وهي أمور لم يخبرها ابن البادية وقد اقترنت في ذهنه روعة الجمال وروعة التماثيل.. ونراه في هذه القصيدة تمجيد للترف والنعيم الذي يلازم الجمال ويفوح منه، أو أمام الجمال يتفتح وينمو فيه كالزهرة في تربتها) (طماس، 2005).
بذا نرى تميز صياغة النابغة وتميز صورة وألفاظه، هذا ما خلق له مكانة خاصة في الشعر الجاهلي وجعله مشهوراً بحسن الصياغة والديباجة.

- الخلاصة :** وفي ختام هذا البحث نخلص إلى أهم النتائج الآتية:-
- 1- أن خصائص شعر النابغة فكان أولها الواقعية إذ ظهر تمسكه بالواقع في كل شيء وجعل شعره أداة من أدوات حياته، فاستخدمها في حربه وفي حوارهِ وفي خلافته وكان فيه محاوراً ومجادلاً ومبرهنأً.
 - 2- أما الخاصية الثانية فكانت التقليد إذ تمسك النابغة بالتقاليد الشعرية وسار على نهج الشعراء الجاهليين محافظاً على ما استنوه من سنن شعرية.
 - 3- كان النابغة جمالياً مرهف الحس يجمع في شعره الجمال فيما حوله ليخلق صورته، وكان يربط بين المرأة التي بدت في شعره رمزاً للحياة الجميلة الهانئة يربطها بعناصر الجمال في الطبيعة، كما أنه كان مثالياً في حكمه ودعوته للتسامح.
 - 4- التصوير ميزة عرف بها الشعر الجاهلي عامة والنابغة كان من الشعراء الذين أجادوا التصوير، وكان له منهجه في خلق الصور المعبرة المتحركة الملونة التي تعطي صورة واضحة عما في ذهنه.
 - 5- كما امتاز النابغة بحسن ديباجته وجمال ألفاظه ورأى الدارسون أن هذا عائد لصلته بالحواضر في الحيرة والشام.

المراجع

- 1- الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام تأليف، د. عبد الحميد محمود المسلوت، منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب جميع الحقوق محفوظة، الطبعة الأولى، 1983م.
- 2- الأغاني ألفه، أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين بن محمد القرشي) 84 م هـ 356هـ بإشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري المجلد العاشر، عن طبعة دار الكتب بمصر (د.ط).
- 3- تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي- شوقي ضيف الطبعة عشرون 1997 طبع بمطابع دار المعارف (ج/م/ع).
- 4- تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نجيب محمد البهيمي، دار الفكر، مكتبة الخانجي (د. ط).
- 5- تجريد الأغاني: ابن واصل الحموي تحقيق: طه حسين، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1957، (د.ط).
- 6- التمثيل والمحاضر، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة الباني الحلبي، القاهرة، 1967.
- 7- ديوان النابغة الذبياني، قدم له وبوبه وشرحه: علي بو ملح، منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- 8- الشهر الجاهلي: خصائصه وفنونه تأليف يحيى الجبوري، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة السادسة، 1993.
- 9- الشعر والشعراء أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق: محمد احمد شاكر، الطبعة الثالثة، 1983.
- 10- الصور في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، علي البطل، دار الأندلس للطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1983.

- 11- في أدب ما قبل الإسلام دراسة وصفية تحليلية، الدكتور محمد عثمان علي، مكتبة طرابلس العليمة العالمية (د.ط).
- 12- قيم جديدة للأدب العربي القديم والحديث، عائشة عبد الرحمن، مطبعة العلم، القاهرة، الطبعة الأولى، 14.
- 13- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 10.
- 14- النابغة سياسته وفنه ونفسيته، ايليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 181.
- 15- ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 2، سنة 1426 هـ/2005م.
- 16- ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه حمدو طماش، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 2، سنة 1426 هـ/2005م.